عندما يصبح الوجود أداة زور !

بقلم حميد كاظم المناف

وبعدما وضع « ن » الملقط الكهربائي في اذني تمزقت صورة العالم في نظري ، واخذت ارتعش واهذي كما اخذت اسناني تصطك، ثم اكتسحت فكري موجة من العتمة والظلام واستغرقت في تلك الموجة الى ما لا نهاية ، الامر الذي جعل الوجود يتحد بنظري وتتلاشى ابعاده . تصورت تلك الموجة شيئا يتغلغل الى داخلية الاشياء فيمتلكها ثم يشرحها ليستغرق فيها . وتصورت الاشياء معطيات ثرة غنية بالمعاني ، بيد ان معانيها ليست الا ماهيات غير محددة . فلماذا كانت غير محدودة ؟. لان عقلي كان لا يستطيع ان يقتنعها ، انه عاجز، وفي العجز يبدو الوجود مزورا مزيفا اذ ان الارادة فيه لا تزن الامور ، فهي مسيرة وليست لديها قدرة على الاختيار والتسيير .

كانت الموجة تقذفني في العالم الى ابعد الابعاد ، اما نفسي فقد كانت مضطربة ، حائرة ، قلقة ، تنفصل عني ثم تعود ، تطفو ثم ترسب، وفي انفصالها وترسبها كنت احسها غير قابلة للمس ، الا انها كانت كالفيلم الذي يعكس الاطياف غير المرئية ، وهي بذلك انما تبدو كالذرة المنشطرة التي تحول الاشياء الى خصائص منبثقة من عنديانها ، مالي وهذا الشبيه العلمي فلادع ن ، يعبث . صحيح ان الكهرباء تؤلمني لكني اشعر ان وجودي يؤلم البعث اكثر ، اذ انه عقبة والعقبة اما ان تجتاز او تسحق . وفي موتي يحقق البعث غيابا لوجودي ، والغياب اقصى درجات الانسحاق .

انني رجل كاتب وتلك هي سبتي ، فانا انظر الى الاشياء من داخلها واري ظواهر الحقائق في جوهرها . لكن هل من المناسب ان اتكلم عن الجوهر وامامي الحياة مجسدة بكل ما فيها من سطحية ؟.

فهذا الوحش الفاشي يريد ان يرهبني ، يعذبني ، يقتلني ، كي يستريح ، وتلك هي متعته . الحركة القلقة ، والايماءة المتشنجة والخوف المتناقض يتستر في اعماقي . انا الذي كنت اجسد كل شيء في الخارج قبل ان ادخل السجن . ولكن الان اصبح عالمي يبصق كل شيء . ان الظاهر الذي امامي هو نفس الواقع الذي تعيشه اعماقي ، وحضوري ازاء ذلك يشتمل على الكون ، يحتويه ، يتضمن آلامه ، فانا احس ان الامي تولد مع الام الشعب . شعبي الفقير ، مع الام الشعوب التي تنبثق في بدني المتقيح ، في جراحي التي تنز صديدا نتنا . مع وحدة امتي ذات اللحن الشعوري الذي يصعد في خاطري كما تصعد الانات المنبعثة مني .

بيد ان الامي واناتي وجراحي لا تشعل ذرة خاطر طيب في معذبي سوى خواطر القسوة والاعتساف والعنف . والحق يقال ان الصراخ والانين والعذابات هي مشاريع فرقة التعذيب والمشاريع تخلق الظروف والاحداث . وفي الظروف والاحداث تحدد المواقف . ومهنة التعذيب محددة من حيث هي نتيجة لا اسباب « لحدث » يكون فيه الوجدان المعذب « بكسر الذال » احساسا ولذة تنطوي على ابعاد اللحظة ، والتمتع باللحظة ، لحظة العذاب ، هو تجسيد لمركبات النقص وجذور الذل الطبقي ، ورغبات الافتراس والتفوق الجنسي .

« ان مهمة الكاتب ان يحيا بوجوده الذي يتغذى بآلامه ودموعه ، ان يتحول الى اتهام ، الى تجاوز للواقع، الى نقد ، الى مقاومة ، الى وجود يتحدى الخوف والعذاب والاكراه والقهر وطغيان الرجعية ومظالم المجتمعات والافكار والعقائد . وتلك هي عظمته ! »

اوقف ن ، الكهرباء ثم امر احد افراد الفرقة كي يبول على وجهي، وقد فعل ذلك الحارس المأفون مثلما يفعل اي شيء عادي اذ ان اخلاق الفرقة قد تعودت الفعال الرديئة حتى اصبحت جزءا منها ، وطبيعي ان الجزء يحمل خصائص الكل .

– انت عنيد يا صديقي المثقف .

– لقد فتشنا مسكنك مرة اخرى وعثرنا على بيان مخطوط لم يطبع وعلى الف بطاقة انتساب لعضوية حركة الوحدويين الاشتراكيين وعلى بعض المبالغ المالية التي جمعت كتبرعات !.

قال ذلك وهو يصطنع الهدوء من اجل ان يعطي لنفسه شيئا من الراحة الا انني ادركت انه يعاني اضطرابا نفسيا ، فهو يتأمل الوجود ، يتأمله بعمق مصطنع ، يمنحه مكونات الحاضر والماضي ، الا انه يحذف نفسه منه ، انه يخاف ذلك الشيء لانه يربطه بالماضي الذي هو حاضره الان . احسست انه يتأمل المستقبل الذي بدا له هوة مظلمة وعندما ذكر لي مسألة العثور على البيان وبطاقات الانتساب كان يتجاوز حاضره، ماضيه كي يلقي عبء ذاته في قضية تماثل القضايا التي يمارسها كل يوم ، بل كل دقيقة ، كل لحظة . واذا كان تجاوزه يحمل شكل الهروب فانه سوف يجد في تعذيبي وسيلة لذلك الهروب . ان عذابا شاقا ينتظرني . ان احقادا وماضيا وحاضرا وتعصبا وتنفسا حادا يتجمع في كل ضربة صوندة او عظة من عظات الآلة الكهربائية . وتلك النقائض النفسية والاجتماعية والفكرية المتخلفة ، ماذا عنها ؟

انها حالة سلبية سوف تنهش لحمك وتدق عظمك ، انك وسيلة ليس غير ، والبشر دائما وسائل للغايات التي لا تضع الا بالالم ومجهودات اللذة والطاقة .. وهل التعذيب ألم وطاقة ؟

اجل ان التعذيب هو مرض الامة ، فجاجة قدرتها الفكرية ، مخاضها الذي لا يرحم ، المها الذي يشق اللحم كي يخرج الوليد . والجلادون هم الضمير الحاقد ، الكراهية التي هي طريق الحب ، فكل ضربة وكل جرح هو شاهد على الازمة ، شاهد على مخاض الذات الجماعية ، ذات الامة التي تبحث عن طريق .

استغرقني ذلك التفكير مدة يسيرة من الزمن عدت بعدها استشعر وجود الواقع . وفي تلك اللحظة التي استشعرت فيها واقعي كان ن ، ماضيا في تعذيبي . اما انا فقد كنت في كل رعشة وانتفاضة او ضربة صوندة او لكمة او صفعة قوية انفصل عن المحسوس واترك العالم شيئا فشيئا ، انفصل عن قواي التي ضاعت ، تلاشت ، اصبحت كومة مميزة ، حجرا ثقيلا يتجذر في الغرفة الا انه كان يتجاوز الماضي يستحضن المستقبل ، ارى امنيتي قد تحققت ؟ اتراني قد تحولت الى حجر لا يمس ، لا يرى لا يسمع لا يفكر ، لا يشعر ، لا يدرك ؟ ام تراني اتوهم العالم عندما اتوجه نحوه ، افرز صبوتي فيه ؟ !

لقد تحولت الى « وهم » كما يظهر فانا عندما انفصلت عن المحسوس انقلبت الى شيء كائن في اللاشيء وهذا الاخير بدون زمان او مكان او واقع محدد ،

معين ، لكن ما ان شعرت بلاشيء حتى ادركت انني سانفلت دوما نحو شيء فارتعدت ، خفت وكان في داخلي مصدر ارتعاش ازلي ، وتساءلت كيف ستكون نفسي اذا اصبح وجودي تجاوزا مستمرا لا يتحقق ؟

ان « ن » يجثم داخل وجودي الذاتي لانني مشروعه الذي يحقق له اللذة والتشفي . ومهما يكن فلقد كنت لا استشعر ذاتي لانها اصبحت ضبابا كثيفا لا اول له ولا اخر ، اما الاشياء فأخذت تنفصل عني ، وانفصالها يقذف في ذهني نبرات الارجاس التي هي لحن هيكل غرفة التعذيب ودهاليز اقبية الموت في زنزانات محكمة الشعب . ترى لماذا تحتاج الحياة الى الارجاس ؟ ولماذا يكون من الضروري وجودهم ؟. لقد كرهت ذاتي وكياني وانسانيتي وقومي لانهم وسائل ، مجرد وسائل للارجاس . ولكن لا ، فالارتقاء ، ارتقاء المرتفعات ، لا يكون الا بالصراع. والصراع هو حقيقة التاريخ الذي يمتلىء باطلا . والمظالم هي مهمات الاوغاد الذين يتوكأون على المباديء ليعصبحوا اسيادها حيث يتربعون على ينابيع الخير والحرية ..

استولى اليأس علي عندما لاحت لي صورة التاريخ قاتمة حالكة حتى لكانها اشد من الليل الحالمس . يا ويلي ، يا ويل ذاتي التي يحيط بها الاوغاد الذين تلتهم اشداقهم خير الحياة ، اذا قلت بعدئذ انا مثقف ، انا كاتب ، فحسبتني ان اتبلد ، ان الجم فكري ، ان ادفنه في دهاليز واغلفة الرجعية . حسبي ما اراه من زيف وتمويه وتزوير ، حسبي الا يكون وجودي اداة للمتاجرين بالقوة اولئك الذين تتبع مسراتهم من الصراخ والانين وكانهم من ذوات الظفر والناب . حسبي ان اراهم يفترسون الانسان في ، وهل اشد وطأة على الفكر من زيف الوجود ؟

ظللت استدق في احاسيسي ومشاعري حتى اصبت بالكساح الوجداني ثم غبت . ولا ادري كيف انتقلت الى احدى الزنزانات ، ولا اعرف كيف استطعت ان اصل ، ومن الذي اوصلني ، وهل حملوني او سحلوني . ام ماذا ؟. كل الذي اعرفه انني موجود في زنزانة غير الزنزانة السادسة التي كانت الشعارات تتجمع فيها كخيوط العناكب. وهل اشد خطرا على التاريخ من خيوط العنكبوت ؟ وهل كان النسيج الزائف غير افرازات العناكب ؟ تلك العناكب التي تقهقه من الاعالي مستهزئة بالناس الذين لا يستطيعون تمزيق نسيجها .

سالت رجلا كبيرا عن المكان الذي انا فيه فاجاب : انها زنزانة ابو سلام .

كان ذلك الرجل المسن هو الشاعر « ص ، ب ، ع » صاحب القصيدة المشهورة « اين حقي » ربت على كتفي وافسح لي مجالا على فراش السيد ك ، ج الذي لا ادري اين ذهب به افراد الحرس القومي، الا انني علمت بعدئذ انه ذهب الى غرفة التعذيب بسببي انا ، لقد اعلمني بعض المساجين انني كنت اهذي ليلة امس وقد فحت بكلمات سريعة وجد فيها جواسيس الزنزانة سرا يجب ان يبلغ لافراد الفرقة. وقد ارسلوا في طلب ك ، ج الذي ذكرت له السر .. تألمت كثيرا لانني اصبحت سببا في تعذيب انسان . يا الهي ان الارتياب يرهق العقل الكليل ، يرهق الوجدان الذي ينفث حقده في عواطف الكآبة والحزن. ان الارتياب لا يخلو من نبرات العقاب والانتقام . اما الزمان فيندلع منه لهبا يحرقنا ، يحيلنا الى اجداث حية بيولوجيا ولكنها ميتة وجدانيا . ان له مظهر المتحمسين فهو يريدك ان تتكلم ، تتكلم عن كل شيء كي تقع في الفخ وفي الفخ لعنة الانتقام. فكهان الشعارات وسدنة الافكار الغيبية العائمة المحنطة يتربصون من اجل ان يجسدوا شهواتهم العاتية واستبدادهم الذي يجد في التعذيب فضيلته ، ومتى تحول التعذيب الى فضيلة نضالية فقل ان الامة مأزومة بأخلاقها وضميرها وفكرها وهي في مفترق الطريق ، فاما ان تنتحر او ان تجد ذاتها ، وفي الانتحار كبرياء تجهل بعثها ، اما العثور على الذات فيبدأ من الرحلة ، من الهجرة . والتعذيب والاستبداد . والارهاب الذي ينطوي على ذكر المساواة والوحدة والحرية والاشتراكية وهو خال من كل صفة حميدة ، بدء هجرة ، بدء رحلة ، لان عواصف العقاب هي عجز الذات عن اكتشاف نفسها ، والبعث عجز عن ادراك نفسه فلجأ الى القوة ، والقوة تحتضن الذين ينحدرون من افسد الانواع خلقيا واجتماعيا وفكريا ، فتجعلهم ادواتها ، وسائل مراميها ومقاصدها .

ان فرار الانسان الى القوة هو فرار من نفسه التي لا تستطيع ان تغير خواص الاشياء بشجاعتها وقدرتها فتندلع مطاويها ومضامينها في القسر والارهاب . وفي القوة شهوة العتاة وارادة الارجاس ونقمة الاوغاد اولئك الذين ينتمون الى كل فصيلة سائدة كي يقتعدوا فيها الكرامة والعزة وليمتكنوا من امتصاص خيرها وايقاع الاذى في حقيقتها. اما الافواه المتشدقة بالفكر والفضائل فان حماستها لذتها اكبر من اي حماسة مما يدفعها الى اتخاذ الرصانة مظهرا والمرونة طبعا كي تنفذ الى الزمن فتطرح فيه ما تبغي وتريد .

مرت ثلاث ساعات على ذهاب ك كما علمت ، كنا نحن المساجين في اثنائها نقتعد رعشات الالم المضن ، فصراخ ك يبلغ اعمق اعماقنا فيوقد فينا الالم والحزن ، ويوقد فينا محارق الضيم والعذاب . ويرهقنا ، يرهقنا لانه اثقل من جبل ، فهو ينادي مضطهديه بالشفقة ويصيح بالرحمة ولكن جميع نداءاته تذهب جزافا لان النداء اذا لم يقع على قلب يستوعبه ، يرسم فيه الرحمة فانه يصبح بالنسبة للقلوب الصخرية اشبه برذاذ المطر الذي يهطل على الصخور فلا يحيي فيها تربة ولا يوقد فيها حياة ولا يوقظ فيها حركة . وتتسع شقة البون بيننا وبينه . بيد اننا علمنا انهم قد نقلوه الى الشرفة المطلة على النهر حيث تدافعت السياط والصوندات والعصي والحبال عليه وكأنها في سباق، وتدافع جلاوزة الفرقة حوله وكأنهم كلاب يستنبحون ذاتهم على عدو يحاولون افتراسه . ومن كبرياء اللحظة وجبروت الانسانية ، كنا ندرك ان الذئاب عندما تتنمر تستخدم الكلاب للافتراس . ولقد استخدم فلاسفة البعث هؤلاء الزبانية الذين كانوا يتصورون انهم اسياد انفسهم، الا اننا نعلم انهم عبيد ضلالهم العربيد وباطلهم الاسود ، عبيد وحشيتهم الكاسرة التي تعتلي انسانيتهم لتستعبدها ، عبيد النقمة والانتقام والشر الذي يمارس الاباطيل وكأنه يمارس الحق الذي يتغذى من الحياة فيحرر صبواتها وممكناتها وطاقاتها ، يحرر فيها ارادة الانسان وقدرته على تغيير العالم ، عالمه ، ولطالما كانت الحضارات مطية اولئك العبيد ولطالما كانت الافكار حكمة تفضي الى استخدام العبيد كي تمزق فيهم الحياة تمزيقا . واي صيغة في الوجود اشد حبكا من تمزيق الحياة باسم معرفتها او السيطرة عليها ؟ واي تاريخ يسجل تاريخا اذا كان في غايته ودلالاته واهدافه وحوافزه التقدمية هي نفسها حوافز وغايات واهداف ودلالات الرجعية ؟ اننا لو ابصرنا الناس من داخلهم لادركنا انهم يهتفون لذاتهم بيد انهم يتظاهرون انهم يهتفون للمباديء . ولو ابصرنا العذب في اعماقه لادركنا انه يبكي على ذاته . على الاخرين . لان قيمته تنبع من مشروعه . والمشروع دائما نتيجة لسبب . وعلى الاسباب يختلف البشر ويتحاربون ويطوعون . والاسباب دائما ضرورية لانها تنبع من احتياجات . واحتياجات البشر صحيحة اذا كانت متلائمة مع الزمن . اما اذا كانت مغايرة له فانها ستكون وجودا بلا صعيد ، وصعيدا بلا حقيقة ، وحقيقة بلا منطق ، ومنطقا بلا ضرورة . وهذا التناقض هو مقاومة لتقدمية الزمن بكل الوسائل والاتجاهات . وكما تقاوم الافكار والمجتمعات الجديدة الزمن كي تفرض نفسها عليه ، تقاوم الافكار والمجتمعات الهجينة كي تطرح نفسها خارج دائرتها وموجوديتها ، بحثا على وسائل ومبررات وحدود تعين صفاتها وملامحها واحتواءاتها.

ان وجودي في المعتقل مشكلة . ونتيجة لذلك فان جميع فعالي وتصوراتي تقع في حبائل وحدود تلك المشكلة . ففكري يقاوم . وخيالي يدافع . ووجودي يمنع ذاتي من الانحدار الى المستوى البيولوجي الذي تريد اللحظة ان تدفعنا اليه . ولكن هل من المستطاع مقاومة ضغوط الواقع القاهر والارهاصات التي هي فوق مستوى الاحتمال ؟ اكاد اشك في ذلك . اكاد اشك ان في قدرة الانسان ان يقاوم الى ما لا نهاية لانه ازاء الظروف القاهرة اجبن من فأر او خنفساء ولذلك تكون ذاته في الازمة والمآزق موزعة ، مضطربة قلقة ، متنافرة ، لان الازمة تريد تجميد الذات ، قهرها ، اما الانسان فبطولة وجوده ان يواجه الازمة كي

يكتشف فيها ذاته ، يحولها الى تعبيرات ووقائع كائنة من اجله . واذا لم يستطع فان وجوده يصبح بلا ضرورة . وعدم الضرورة غياب . اي زوال الوجود .. كانت الزنزانة تجمد وجودنا بقدر ما تفجر فيه اندلاعات شعورية . وفي كلا الامرين نجد انفسنا ملزمة بتوزيع طاقاتها. لانها لا تستطيع ان تصنع من آلامها وجودا فوق صعيد الالم . فهناك من يضحك ويستهزيء . وهناك من يشعر بالضجر والقرف . وهناك من تجبره الظروف على الرضوخ تحت وطأة المناخ البيئي الذي يعيشه. اما الباقون فانهم يبدون كما هم في الحقيقة ، بدون تمويه او زخارف. ان الزمن الذي نعاصره هو نقيضنا . فالمضايقات والمنغصات والهموم والكروب هما خصيصته التي تدفعنا في كل لحظة ، ولذلك فنحن عندما نحاول الانتصار عليه ، انما نرسم نفسنا نقيضا له . اذن فكل عمل نوجده وكل حركة ندفع بها العقدة ، الازمة ، نقاوم بها ضغوط الحياة. فنحن في الخارج نضع وقائع في الوجود لاننا ملزمون بمشاكلنا الاقتصادية والحضارية . اما في السجن فنضع رفضا متواصلا للبيئة الضاغطة . ولكن كثيرا من المعتقلين ينهارون فيسقطون فريسة للهذيانات والاعمال الانفعالية والتخبط السلوكي العشوائي . وقليلون يتماسكون لانهم يرون في التماسك تمييزا لوجودهم وانتصارا لهم .

الا ان الامر ليس بسيطا لهذه الدرجة . فالوقائع والامور وما جريات الاحداث والظروف شاقة وقاسية . فالزمن يسقط كل شيء مثلما يسقط الحجر على الارض بفعل قانون الجاذبية . ومثلما يركب الماء نتيجة للهيدروجين والاكسجين . ومثلما يوجد الانسان لانه لا يستطيع رفض وجوده . فنحن لا نستطيع ان نفرح لاننا متجذرون في السجن . ولا نستطيع ان نموت لاننا موجودون بالقوة . ولا نستطيع ان نرفض السجن لاننا نخوض لحظات الوجود بهوان الاستخذاء وجبرية المذلة . فصارى ما نستطيع ان نلتزم لحظاتنا . والذكي الذكي من يفلت من ذلك الالتزام الالزامي . نحن في سجن . اذن نحن فاقدون معنى حياتنا . وفقدان معنى الحياة يسقط الكائن في العبث . وابعد الناس عن عدم الاحساس بالوجود هو الذي يشعر بالعبث .

ان وجودنا الذي يصنع وقائعنا يجعلنا نثمن لحظاتنا بفقداننا للحرية والشجاعة . وهذا هو الفرق بين السجن والحرية . ففي السجن نتعامل مع الاشياء عن طريق جبريتها وحتميتها ، اما في الخارج فنتعامل مع الاشياء على اساس من قدرتنا ومجهوداتنا وامكاناتنا لتغييرها والسيطرة عليها .

**

كان فكري يرتفع فوق اللحظات وكأنه كسيح يسير قليلا قليلا حتى لا يقع على الارض . وكانت درجة الغليان الذاتي قد هدأت رويدا ، رويدا ، وانخفضت الاحزان لان ينبوعها اخذ يتدفق في الزمن مثلما يتدفق الوجود في كل لحظة في قلب العدم وكأنه كائن عاد من الصحراء محملا بأثقال الحياة واسرارها ، والاحزان عندما تترسب تتجذر في الاشياء ، تتعالى فيها كي تقترب من ذاتها ، ويا لقساوة الاحزان عندما تكون في القلب بمثابة الشريان ، انها مكافأة الوجود لذاته وذلك هو ثمن الصدق والاخلاص والفضيلة .. والاوغاد يحقدون على الاخلاص لانهم مثل الحلقة المفرغة عندما يستديرون لها ليصبح اخرها ، الحلقة التي تريد ارغام كل شيء على الدوران معها ، وهل سمعتم ان اشد الاوغاد حقدا من يكون عمله جزاء لحقده ؟

شعرت بألم شديد عندما تأملت المساجين ، والالم هو جحيم شعوري الذي يحب الناس الذين يحملون وسم الضحايا والجلادين . لكن علي ان اكبح جماح قلبي لان التعاطف الشديد يقود الى المحبة والبكاء والاشفاق الذي يشد الكائن الى الضعف ، بيد انني التهب رحمة على كل البشر حتى يبقى دمي نقيا وضميري طاهرا وعقلي مبدعا .

انني احب الرحمة ففيها يسعني ان ارى الناس من الداخل ، لكن واأسفاه فالمبدعون لا يعرفون الرحمة لان الجنون مهمتهم والجنون او الشذوذ كما قلت سلفا مهمة العبقري الى الاحسن ومهمة الرديء الى الاقبح ، وجنوني عجيب لا يريد الاحسن او الاقبح ، انه يرفض كل شيء ، والرفض يقتل الطموح ، بيد أن ما يدعو الى الفخر انني اصبحت ملجأ لالام المساجين ، والويل لكل من يصبح ملجأ للالام ، ويل لمن يكون جنونه رفضا للحب والكره، ويل للرب الذي لا الوهية له الا الاخلاص والصدق ، فلقد امات الصدق والاخلاص جميع الالهة . اما نحن ابناء هذا القرن فنزداد قسوة وحبا وكذا اشفاقا وقوة لان الخلق لا يكون الا في شيئين ، ومن الصعب ان يعيش البشر في شيء واحد . ما لك لا تسكت ؟ ما لك لا تقفل فمك وتوصد ابواب عقلك ، وتتبلد ايها الكائن الذي يستعصب السكوت ؟ ان كل شيء فيك لا يبرر طموحك فانت مسحوق ، وفعالك ومشاريعك واقوالك وفكرك جهد باطل ومتى ينتج الجهد الباطل في التاريخ تاريخا ؟.

عدت اتمثل تواضعي وحزني ورحت اتأمل الزنزانة والممرات ومناخ الزمن الفكري والاجتماعي والسياسي ، فوجدت ان رأيي يتحقق في ذاتي بالرغم مني . فهو مفروض علي من اعماقي لان ارادتي لم تكن قادرة على التحكم في فكري .. ظللت اسبح في عالم من التأملات العميقة التي تقلتني الى الخارج ، الى عالم الجوع والفقر والمسغبة ، الى مشاكل شعبي الطبقية والقومية ، فوجدت الحياة جحيما لا يطاق ، الا ان ذلك الجحيم كان يعطي المعرفة والحب لجميع المتأملين ، ووجدت « روحي قد تطهرت واصبحت نقية كالجوهر » فشعرت بالخجل لانني لم اقدم شيئا يذكر لهذا الشعب ـ وان كنت قد قمت بأعمال حقيقية ـ الا ان من كان في طبعه العطاء لا يعرف المتعة واللذة والسعادة الا اذا اتحد وجوده في الكل ، والكل بالنسبة لي هو الشعب الذي يكمن في قلب ذاتي التي تجد صبوتي فيها مكانها وديمومتها ، تمنيت ان يستولي العدم على كياني حتى لا اكون ناهشا للحرمان والمسغبة ، ومن لا يعمل او يسجن يؤلمه ان يكون ناهشا كالدود او الحيوان المفترس ، والثوري الشاهد يهمه ان يكون حيا في الخارج كي يزيد في ثقل ارهاصات التقدم والتطور وممكنات الحرية .

ان مفارقة السجن هي مغادرة للاصفاد التي يمكن ان تتجاوز عند عدم قدرة جلاوزة البعث المسيطرة علينا . اننا نريد الخروج من السجن الصغير كي نفزو السجن الكبير لنحطمه ، لنهشمه ، لندكه فوق رؤوس صانعيه ، واساليب النضال والعمل تدفعنا الى اختيار الموت في الخارج ، في السجن الكبير ، ولكن ذلك حلم لا يكف عن تضليلنا ، والضلال مجرد رؤى ميتافيزيقية غيبية لا تنتج شيئا ، واذا ما حلمت وانت محصور من كل جانب بجدران صامتة كالقبور ، كالعدم ، فان حلمك سيتبدد ، ولن يكون الا شيئا يمتزج بالكآبة والحزن واللاجدوى ، وتلك هي المرارة التي توقظ فيك التجذر في الانعزال والوحدة ، واذا ما انعزلت فان توقك وشوقك سيموتان ، ويصبح ظمأك الى حياة النضال لهيبا غير مجد لانه مرشوق في الخيبة والفشل .

ومهما يكن فان السجن كان يشعرنا بالخيبة والفشل لانه يدفن صبوتنا . توقنا الذي يريد امتلاك اللحظة الزمنية من اجل ان يجسد

فندق نيو بالاس
ادارة : فتحي نوفل
وسط راقت
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف
جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريه سابقا) القاهرة
خلف سينما الكونكورد بصلاح الدين
ت : ٤٥٩٣٦
س ت : ٧٩٧٩١
New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo

فيها فعالنا ، امكانياتنا ، فهمنا العلمي للاقتصاد والانسان والحضارة والمجتمع ، ادراكنا للموقف ، للحقائق الصحيحة والمزورة الكامنة في قلب وجودنا ، للاحداث التي تخلق كل شيء هجين وسيىء ، للظروف التي تؤكد حضور الايديولوجيات العالمية في واقعنا .. والحديث عن الايديولوجيات يجعلنا نتكلم عن السياسة . والكلام عن السياسة اثناء عمليات التعذيب والابادة لن يوقف الارهاب الفاشي . الا انه يحدده ، يعين معالمه وملامحه وقسماته ، سحنته التي تحمل عوامل الوقائع المحلية والعالمية . واذن السياسة تجبرنا على الحديث عنها لانها « حاضرة » والشيء الحاضر يجبرك على رؤيته حتى ولو كان بصرك يتجاهله فهو ثقيل الحضور حتى ولو كان تافها ، وهو شديد التجذر حتى ولو كان سطحيا ، انه يحمل في ذاته طبيعة الموضوع « المطروح » وعلى الوقائع . وفي طبائع الاشياء كينونة الفكرة والنظرية او الايديولوجية . لكن هذه الكلمة « حضور » ليست سوى تجسيد لوجود فاجع يتجذر في النقائض . والبعث هو نقيض الخير لانه تحول الى ضد شرير يمتلك الاشياء من اجل ان يرجعها الى اصولها النابعة من مطلق الظلامية والرجعية . والاشياء كما هو معلوم تفقد تقدمية اذا كانت متلائمة مع الواقع الذي تنبع مقوماتها منه ، اما اذا كانت تبغي ربط الواقع بالماضي كلية من خلال علائق وشروط مادية او فكرية مغايرة للحقائق الحاضرة فانها تفقد رجعية ، وهذا هو الفرق بين القوى التقدمية والقوى الرجعية ، في الوجود والتفكير والمنهج .

وعلى هذا فكينونة الذات ليست موجودة في عدم ـ وان كانت تنبع منه ـ فهي متحددة في علائق وشروط اجتماعية معينة ، كما انها ذات اصالة ، انها مرتبطة بالانسانية وبذاتها ، والروابط الانسانية كالطبقات والقوميات والمجموعات تنتج « ماهية » وعلائق عامة . اما الذات كموضوع فريد فهي تجاوز للعلائق والروابط ، والتجاوز ليس معناه الفراغ واللاكينونة ، فالاعمال والارتباطات هي محتوى الذات . بيد ان ذلك يجعل الذات كائنة من خلال وجودها . والوجود كما ارى ليس وسيلة بل غاية ويجب ان يكون وجود الانسان غاية .

**

كانت فرقة التعذيب تهدد وجودنا وفكرنا بالاكاذيب التي تدفعنا الى التيه والحيرة والضياع ، فالحرس القومي يدفع بافراده واحدا اثر واحد لينقل الينا عن طريقهم الاخبار الملفقة والالفاظ المسعورة والحكايات المبتكرة . وكان بعض الحرس يضيفون الى الاخبار المذكورة بعض الرتوش والاصباغ حتى تصبح « معلبة » معدة للتصديق . وكان « خ » الرجل الثاني في الفرقة يطل علينا بين الفينة والفينة ليتشفى ويشمت واحيانا ليظهر انسانيته في اعطاء بعض المساجين الذين يئنون من الم الجراح حبوب « العراق مجانا » والمعروف لدى الشعب في العراق ان هذه الحبوب تستعمل لاوجاع الاسنان والمعدة ، اما الجروح واللسعات الكهربائية والقروح والقيح فان « خ » يريد ان يشفيها بتلك الحبوب .

على كل حال فان المساجين المرضى او الذين يشرفون على الموت يتعاطون حبوب العراق مجانا ، وكأنها البلسم الشافي والدواء القاطع لكل جراحاتهم وقروحهم بل وعقولهم التي اصيبت بالخبل نتيجة للانتفاضات الكهربائية . والا لكي من ذلك ان فرقة التعذيب قد جاءت بشخص لا يزال تلميذا في الكلية الطبية ليتدرب على حسابنا . وكان ذلك الشخص يدعى « ع » قصير القامة انيق الهندام دائما . وقد وضع ذلك القميء عيادته بجوار غرفة التعذيب الامر الذي جعل المرضى يهربون من العيادة المذكورة لانهم كانوا يفضلون الالام الجسدية على الصراخ والانين والتوسلات والصياح والرفسات واللكمات وحركة الآلة الكهربائية وشماتة الجلاوزة وهستيريتهم ، اما انا فقد مكثت ليلة كاملة في العيادة . وفي الصباح طلبت ان اعود الى الزنزانة التي بدت لي شيئا يحتوي قليلا من الحرية والحياة .

المهم ان الفرقة كانت تجد في اطالة عذاب المرضى لذة لا تفوقها لذة تنطوي على نفسها حتى لكأنها شيء يتحد بالكون لينتزع منه المعنى والمبنى ، واي معنى ومبنى في لذة فرقة التعذيب ؟. انه معنى الهدم لا البناء ، والقرض لا النسج ، والظلام لا النور ، لان ما يخصهم هي خاصيتهم الذاتية التي ترى ان الالم يوقظ المتعة . ومتعة العذاب تخلق في الكائن طبيعة مجردة من الانسانية بسبب استيقاظ الوحش في الاعماق، والبشر كل البشر وحوش لان : «اصلهم في غورهم» ، ومتى استيقظ الاصل فان اغلفة الثقافة واقمطة الفكر واردية الحضارة والتمدن تتمزق ، لتكشر الذئاب عن انيابها وتشحذ النمور مخالبها ، فكيف اذا كانت النماذج النمطية التي تقود فرقة التعذيب لا تعرف من الثقافة والفكر والحضارة الا القليل ؟. وكيف اذا كان القادة ادعياء يحاولون ان يجعلوا الكلمات التي تخرج من افواههم النتنة كحكمة كونفشيوس وافكار وجهادية محمد واقوال نيتشه وعلمية ماركس ، وهي في الحقيقة اتفه من مقولات بيلاطس البنطي ومسيلمة الكذاب !.

انذاك يقفز الوحش فرحا ويعلن عن ذاته . انه يجد في السوط الذي يجلد ظهور الاحرار اداة حقيقة ، وفي غرف التعذيب . واقبية الموت بيئة للحياة تتيح السعادة ، وهكذا يزور الانسان ذاته لانه يعود بها الى اصلها الذي انمحى وانقرض ، يعود بها الى غرائزها البدائية التي تجد في العنف متعة حياة .

اندفعت معلومات عديدة الينا تقول : ان عبد الناصر اتفق مع بريطانيا على انشاء محطة اذاعة تسمى اذاعة الشرق الاوسط تكون بمثابة صوت بريطانيا الحرة ! كما كان الامر بالنسبة لاذاعة الشرق الادنى القديمة التي انقلبت الى صوت بريطانيا الحرة اثناء العدوان الثلاثي على مصر ، وكانت المعلومات تؤكد بالحاح ان هناك وثائق سرية اكتشفت في هذا المجال . اما نحن فقد كنا نستهزيء بهذه المفتريات باستثناء بعض الجواسيس الذين ينقلبون تارة الى اليمين وتارة الى اليسار ، وعلى ذكر اليسار فاني اقصد هنا اليسار العربي لا اليسار الماركسي !. ولقد حدث في احد الايام ان احدث بعض الجواسيس شغبا ادى الى تلفيق بعض التهم المزورة على احد الاصدقاء مما دفع الفرقة الى تعذيبه كي يسكت ويظل صامتا رغم كل شيء .

كنا نعلم ان عبد الناصر هو عدو الانجليز والامبريالية العالمية في الشرق العربي . وانه رجل الجواب بالنسبة للشعب العربي . اما مشروع الاذاعة الذي لم نكن نعلم عنه اي شيء فلا بد انه كان خرافة او اسطورة بعثية يحاول الجلاوزة اقناع انفسهم فيها ، ولربما اصبحت الاكاذيب جزءا من الحقائق في هذا الزمن الذي لا يعرف الرحمة والانسانية والاخاء ، ربما ، صحيح ان الربما اداة ، توقع ، الا انها كثيرا ما اصبحت اداة فعل ، فلقد فعل النازي وفرقة الـ س س التابعة لمنظمة الجيش الفرنسي السرية ابان حرب الجزائر ، وفعل البعث في مجالاتها ومناخاتها الاعاجيب ، وها نحن تحت رحمتهم ، تحت رحمة الزنزانات . زنزانات تصطبغ بدمائنا وكأن لونها الذي يلطخ جبينهم لا يحمر خجلا لانه يرفض رؤية الاحمرار لانه دم .. سكت الحرس عندما ادركوا اننا لا نقيم وزنا لما يقولون ، الا ان بعضهم كان يقذف بقصاصات خبرية من جريدة « الجماهير » تشرح قضايا سرية واتصالات مشبوهة لحكومة عبد الناصر بالاستعمار الانجلو امريكي . وكانت هذه الانجلو نكتة تبعث روح السخرية فينا رغم الالام والعذاب ، فالصحافة التي تقع في ايدينا لا ترتاح الا اذا استعملت كلمة « الانجلو » وقد غضت طرفها عن المجازر التي يرتكبها ذلك الانجلو الاستعماري في الجنوب العربي المحتل وفي افريقيا والكونغو وشعوب جنوبي شرقي آسيا وامم العالم الثالث ، اما المقال الذي يطل علينا كل يوم خميس بقلم احد الكتاب العليمين بالامور فانه كان والحق يقال ريبورتاجا بعثيا ، يتمتع كل من يقرأه بمعرفة مصطلحات جديدة في اللغة العربية تدخل في مبتدعات السباب العلمية والشتائم المنطقية .

كانت الايام تسير وثورية البعث تسير ايضا ، بيد ان مسيرها يتفوق على ذاته ، فهو يتشنج وينتفض بعصبية ويستعيض بالاشواك عن الورود ويحطم الواقع تحطيما حتى لكأن الواقع لم يعط وجوده

ـ التتمة على الصفحة ٥٢ ـ

ـ عندما يصبح الوجود اداة زور ـ

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٨ ـ

خيرا لان وجود البعث يضمر الشر في ذاته ، والشر عدو كل ما هو خير تنقلب الاشياء لديه خصما يجب أن يطعنه ، يفتك به ، يعلو فوق حطامه . لكن الخير ينبع من الشر ومتى اتحد الخير والشر فان البشر يندفعون الى آلام المخاض التي تخضع مدراتهم للمعاناة والتمزق ، ونتيجة لذلك أدى امني تتمزق ، تتمزق بين النيرات وأصداء الشر وسيماء الخير .فهازة بقبح الظلام وتمدود الحقائق الكاذبة . التمزق يحتوي لحظة الالم التي تجمع فيها معطيات الظروف والاحداث والتجارب والارتكاسات ، وارى ان ذلك التمزق يتضمن القوة والضعف، الادراك والضلال ، الانحدار والارتفاع ، التموضع وتصنع التموضع . وفي تلك اللحظة تجد الامة نفسها في طريقين . الاول رجوعي لانه يؤخر امكانيات الوجود . والثاني تقدمي لانه يخضع الامكانيات والطاقات للارادة ، وفي مفترق هذين الطريقين تكمن المأساة والفرحة ، يكمن التمزق والوحدة ، الامتلاء والفراغ ، التحدي والاستخذاء ، الاستجابة والصمت. والمأساة والتمزق والفراغ والصمتمواقف فاجعة ، والفجوع يوقع في الذات أشد الالام ، الا ان كل ما تحتويه المأساة وما ينطق منها وما يتكون ويصير فيها ، يحدد ملامح الانطلاقة والوثبة ، او السكون والركود والهدوء .

وفي سعي لحظة التمزق والالم سعي الكينونة الى معركة ماهيتها التي يملؤها الزمان والمكان ، المواضيع والمشروعات ، الفكرة والقاعدة ، الممكنات المادية والطاقات المعنوية . لكن هل « اللحظة » كائنة .؟. لا ريب ان معطيات الامور تعطي للمشاكل والازمات والقضايا اسما معينا وفي ذلك الاسم نجد المعاني مرموزة بقدر ما هي مرسومة ولذا فاننا لا نستطيع تجاوز الازمة او المأساة لان ذاتنا الجماعية تدور فيها ، وعليه فان المعطيات تبدو لنا متحركة في دينامية اللحظة مما يجعلنا نشارك في الفعال والاحداث ، اما التجاوز فهو مهمة الفكر الى الابعد والاحسن . الا ان الفكر يجب ان لا يبدد الزمن ويقلصه في اللانهاية فكل شيء اذا سعى سعيا نهائيا غير واضح او واع لحدوده وماهيته فانه يضيع في الازل والتشتت .

كان المعتقلون يجسدون لحظة الالم . اما الجلادون فهم لا يعرفون من الالم الا سطحه وفي السطح يكون الزبد فضيلة الامواج المتطاحنة المتصارعة ، والزبد غالبا ما يذهب هباء . ولكن الجلادين كانوا يطالبون بالاندغام في الالم من خلال تشنجاتهم العربيدية وتمثيلياتهم الافعوانية ، فهم يشرحون مهمة التعذيب ، والحرب الصليبية التي يشنها الحزب على جميع الاحزاب والحركات والمجاميع الشعبية بأنها حرب نضالية يصطدم فيها الخير مع الباطل ، والخير يجب ان يكون قويا لان القوة مبررة بخيرها . هكذا اذن فثورية البعث خيرة وشريفة ، اما لجان التعذيب واقبية الموت فهي ادوات ذلك الخير والشرف !

المعتقلون يجسدون ذاتهم في وجودهم المدان ، اما الحرس فيجسدون وجودهم في الصراخ والانين والتأوهات . انهم يرون في الاحتجاجات نشيدا يقرع السمع بأنغام رائعة ، لكن المساجين يرون في الصراخ نغمات حزينة باكية . ان الحرس يتسول ويستجدي البشرية حينما يعذبها ويقتلها ، يتسول منها لحظة حياة ، هنيهة فرح ، حركة لذة ، وفي العذاب تجد مجاميعه وفئاته اللحظة والهنيهة والحركة فترفع عقيرتها بأفظع انواع الشتائم والسباب ، وتظل تصرخ وتعربد وتضرب وتعلق وتقلع الاظافر وتفقأ العيون وتنزع اعضاء الجسد كيما تحقق متعة ايمان ورقصة حب وفحة تنمو من خلال الكراهية . وكانت فرق الحرس تؤكد ان الشعب معها باستثناء بعض الناصريين والشيوعيين ، ومع ذلك فانها سوف تبيد تلك التجمعات الذيلية السطحية الخ المسميات والنعوت والالقاب . ولقد اكدت عمليات التقتيل والابادة ان فرق الحرس في اثناء عمليات التعذيب والابادة الجماعية لم تفرق بين الناصريين والشيوعيين والمجاميع الشعبية الاخرى . وبين اعداء الشعب الحقيقيين . لانها ضمت اعداء الشعب الى جانبها . ولذلك فهي لم تتوان عن اعتقال اي شخص يختلف مع اي فرد من افراد الحرس اختلافا شخصيا ، الامر الذي جعل الناس لا يأتمنون على انفسهم واعراضهم وحريتهم وكرامتهم ، لان لفرق الحرس الحق في القاء القبض على اي فرد في اي وقت واي مكان وتعذيبه ، وممارسة اقسى وسائل الاساليب الفاشية معه بغض النظر عن نوعية تهمته او الادلة الثبوتية التي تثبت انتماءه لحزب او حركة.

اما النساء فقد كان معتقل « الادارة المحلية » يعج بهن وكنا نسمع الشائعات التي تردد باستمرار عن الفعال الجنسية التي تمارس معهن ، والمضاجعات الغريبة التي كانت تذكرنا بقصص المركيز دي ساد وجي دي موبسان واغوار اللاوعي عند فرويد والمدارس البيسكولوجية الاخرى ، والجرائم الجنسية التي تحدث في الدول الاوروبية . وكانت تلك الاشاعات لا تكف عن طرق مسامعنا حتى لكأنها مقارع طبول حادة .. والحق اننا كنا نرى ان هذه الاعمال اللاانسانية هي انتصار للشر وتحطيم للخير لانها تميت الحق في اعماق فرق الحرس وتزرع الباطل ، تخلق الموت في البعث ، ولا بعث مع الموت لانه اقرب الى السكون والصمت ، والفراغ والعدم .

اجل ، ان حكايات النساء كانت تنال من المساجين مقتلا ، فهي تجعلنا نشفق على الجنس الاخر الذي لا نستطيع ان نمتلكه الا اذا احترمنا المرأة كذات لها حريتها وكرامتها وارادتها وخصائصها العقلية والجسدية . وفي هذا الاحترام نجد كرامة الانسان كانسان . اما الاغتصاب الذي يحرق الذات والكرامة فهو أقرب الى سليقة الوحوش والبهائم منه الى سليقة الانسان . ولكن ما حيلتنا وسلائق الوحوش في طبائع الحرس ؟. كنت ارتعش واذعر عندما اتصور امرأة تغتصب ، فكيف اذا كان المغتصبون جماعة ؟ فئة كبيرة تتعاقب عليها لتمتص منها ريق الحياة ، انني ارتعد لان اللطف لا ينفصل عن طباعي حتى ولو كان الامر يستلزم القوة ، ولكنها اعماق البشر ، تلك الاعماق التي لا تعرف اللذة الا اذا كانت اغتصابا ، ولا تعرف الحياة الا اذا كانت حسدا ، ولا تدرك الاشياء الا اذا كانت تختفي خلف طيالس وزخارف البهرجةوالمظهر.

كانت القضايا الجنسية التي تمارس في معتقل الادارة المحلية تدفن ذاتي في مخابيء الغدر ودهاليز المآسي والالام . ان فكري ينتقل من موقف الى اخر . من حركة الى ثانية . الى رمز ، الى معنى ، حتى ارتج علي الامر وكدت افقد تصوري للاشياء ، لان العقل عندما يبلغ مرحلة الاعياء تصبح رؤاه ضبابية ، والعي ليس صنوا للمرض او التشتت او التركيز الميتافيزيقي فقط فهو صنو الخوف والارتعاد والذعر ، ومتى خاف الانسان فان عقله لا يستطيع ان يستنطق الامور او يبلور الصور الى كلمات ، والكلمات الى فهم ، تلك هي عادة كل كائن حي ، ولقد خفت وارتعدت فرائصي عندما طرق مسامعي نبأ اعتقال « ع » ابنة عمي بتهمة الارتباط الحزبي معي . واخذت اخشى اعلان خوفي للاخرين لكيلا يبلغ الجواسيس ذلك الى قادة فرقة التعذيب . فأشد ما اخشاه ان اكون ضعيفا امام الجلاد الذي يرى في ضعف ضحيته انتصارا له. واشد ما اخشاه ان يعمل جلاوزة الفرقة ما اخافه . من اجل ذلك كتمت مخاوفي التي هي نتيجة لاعتقال ابنة عمي « ع » ومع ذلك فقد كانت بوادر القلق ترسم في سيماء وجهي سحنة مكفهرة كأنها سحنة الاشباح ، ولو كان لاحد أن يفحص اعماقي لوجد احتدامها الذي كان يمور مثل بحر يصطخب وامواج تتزاحم في لجة الاندفاع والارتطام على الصخور .

لقد برزت امامي صورة « ع » التي احبها ، عارية وايدي الجلاوزة تعبث بها فارتعدت وانتفضت ، مما جعل الشاعر الكبير « ص ب ع » يلاحقني بالاستفسارات التي تهدف الى القاء عبء الهموم عني ، لكنني لذت بالمبررات والذرائع التي يتعلل بها كل سجين : كالضجر والملال

ورتابة حياة الموقف ، وتكرارية الاشياء ، والمعاملة السيئة وما ألى ذلك، الا انه ادرك ان شيئا ما في اعماقي يعذبني ، يدفعني الى الضيق الحاد، فأخذ يتلو علي بعض ابيات من قصائده ، الامر الذي جعل الصديق العسكري الملازم « أ » يشاركنا في متعتنا المتقيحة صديدا ، شعرا ينفث الكلمات دما . ولقد شعرت اثناء القاء الشعر ان العالم ينفصل عني ويمتليء بأحاسيس غير محسوسة حتى يضمحل ذلك الامتلاء ويتلاشى .. وكم حاولت ان افسر هذه الظاهرة النفسية حينذاك فلم استطع . بيد انني ادركت فيما بعد ان الشعر لسان الكون وان لحظة النشوة التي شعرت بها تتضمن ازلية الزمان ، فبينما كنت اتجمع في لحظة رعب تجمعت في لحظة متعة . واذا اتحدث المتعة والرعب فان العالم يبدو نكهة لذيذة وشيئا طازجا جديدا غريبا .

منذ ان علمت باعتقال الانسة ع ، لم اذق النوم في اغلب الليالي الا دقائق قليلة مما جعل الحياة في نظري قاحلة لا تطاق وجعل بصري وعقلي ومداركي كليلة . ولكن رغم ذلك فقد كانت نفسي عنيدة الى اقصى حدود العناد ، فهي تتصور ان النوم يجعل فكري غافلا عن ع ، وفي الغفلة يستطيع الحرس ان يفترسها . على ان لهذا التصور الساذج مبرراته ، فهو ينجاوزني لانه اكبر من قدرتي على التحكم فيه ، ولان الذات البدائية اقدم في الانسان من الذات الحضارية وعندما يعجز الفكر والعقل من السيطرة على الذات البدائية تتمرد لتعلن عن نفسها وحوافزها وارادتها وتحذف الذات الحضارية .

كانت ذاتي بقعة صمت تعيش في الزمن ، تتنقل في الزنزانات وغرف التعذيب وشوارع بغداد التي تبدو كالانجم الخافتة . وتنبثق في المواقف الماضية التي غدت ذكريات ممضة ، خلفية حارة تسبح فيها الاشياء المفعمة وكأنها محبوسة في الضجر ، الضجر الذي يقلب الاشياء رأسا على عقب من اجل ان يجعلها تقيم داخل امتلاءات تسقط دائما في الماضي . والسقوط في الماضي غزو للذات الحاضرة من الذات الماضية ، التي تكبر وتنمو دونما نهاية اوحد . وهكذا فقد اندفعت ذاتي الى حارتي ومسكني حيث الحب يلعب مع الشمس ، وحيث العفوية تهزأ بعدالة القيم ، واستسلمت لحلم لذيذ جميل كانت ، ع ، فيه تنظر الي بعينين سوداوين ، اما انا فقد تعمقت في اغوارها فرأيت الوجود متعة حاضرة في لحظة، ولمست دفء الحنان بالاحساس والشعور وحاولت ان اعانقه بجسمي فلم استطع لان الحنان عندما يكون شيئا غير مرئي تكون تلقائيته النقية خالصة فهي غير مادية . وبكيت بحرارة ، ثم راح البكاء يتطلغل في اصداء كلماتي ، اما هي فقد استنكرت ان يبكي الرجل فالبكاء كما تعتقد للنساء . لكنني قلت لها :

ـ البكاء يا ، ع ، مطر ، مطر قلوب الرجال ، ومتى نبضت القلوب وازداد وجيبها انتفضت وفاضت ذاتها التي يبلغ بها التأثر مرحلة الفناء في اتفه الاشياء واكبرها .. وارتمت ع فوق ساعدي ثم بكت ، وانعطفت نظراتها وكأنها وهج مشع يخترق الجدران فاحسست نتيجة لذلك بذاتي تطفر في ذاتها طلبا للذة الفناء والتلاشي ، ثم فاضت حتى كدت اسهو عنها . وراحت تتسلق ابعاد الوجود فتركت ع ذات الوجه الخمري وعانقت امي التي كانت فرحتها بي دائما اكبر مما توصف . وهي بالرغم من سذاجتها وطيبتها فقد كانت ترى ان ابنها رجل في مستوى الفعل والحدث ، وتأملتها في شبه صمت اندفع الى البداية وانتقل الى النهاية بهدوء وتؤدة ، ثم عانقتها ودفنت رأسي في صدرها : اماه لم اكتشف افضل من الحنان في الوجود ، فوجب ان اقدسك ! ان اركع كطفل امامك .

وعند تلك اللحظة قبلت جبيني . كانت قبلتها احر من شمس تموز . اما دفؤها فكان يطارد اشباح الفكر التي تعشش في ذهني ، انه لشبح ذلك الفكر الذي يلون الاشياء ، اما عفوية الوجود فتعطي العالم معنى بدون نقائض . ومن هنا سعادة الفرد الساذج البسيط الذي يرى الوجود كما هو في الظاهر . اما النقائض والاشكالات والمقومات والمؤثرات فلا تهمه ، فالوجود في نظره « سكرة الله الابدية » وتعود ذاتي الى جدران السجن التي تحاصرني فأحد عوالم اخرى مليئة بالالام والعجز واللاجدوى ، ومن يدرك ذلك يكن اشد المساجين آلاما ، الا انني لم اعبأ بالالام ولكني استغرقت في الم حاد شديد عندما حان موعد مقابلات المساجين لذويهم ، وحينما صعدت والدتي الى قبو الانتظار كان احد افراد الحرس ينادي بأسمي ، فخرجت مسرعا وقبل ان ادخل قبو الانتظار ابصرت اختي الصغيرة تلعب بدمية على شكل دب وما ان لمحتني حتى تجمدت نظراتها وسقطت الدمية من بين يديها . وتأملتني لحظة ثم ولت هاربة الى امها .. لم تكن لدي قدرة على الانتباه لحركاتي وتصرفاتي وسلوكي لان عاطفتي الجياشة كانت تكتسح ذهني وما كدت ابصر المرأة الكبيرة حتى القيت نفسي في حضنها وكأنني طفل صغير ، والتهمتني بنظرات حنونة ثم راحت تقبلني بقوة وبعدها ولولت وبكت . اما انا فقد كنت اتأملها بهوس انفعالي كاد ان يعصف بي ، يدفعني الى الافصاح عن عاطفتي في نوبة بكاء حادة . بيد انني تمالكت اعصابي وحبست دموعي . فالذي لا يستطيع ان يبكي يستطيع ان يصمت . والصمت حركة ضد البكاء تتجمع فيه كل تكدسات الغضب. والكائن الذي يستطيع امتلاك الصمت يختار ان يكون شاهدا ازاء الاشياء بقدر تجذره فيها . اما الذي يمتلكه الغضب فان صمته ينفجر في هوس شبق يحيل كل شيء الى وسيلة لصالحه . واللحظة التي نحن فيها تريد مني ان لا أكون شاهدا ومتحمسا . كل ما تريده هو استهلاك وجودي في اللاوجودي . ومتى شعر الانسان باللاجدوى فانه يحس بالعالم شيئا لا معنى له ولا هدف . واذا كان المعنى يحدد الكون واللحظة فان اللامعنى ينفي الحدود ويجعل الشعور اداة خلق للاشيء. وفي اللاشيء يكون نموذج النوع البشري ضبابا صوفيا لا ابعاد له ! ان اللحظة هي التي تصنع تقدمنا او تأخرنا لانها ترسم ابعادنا . وفي اللحظة التي اعاصرها كل مزايا الرجعية . لانها تحددنا . تحذفنا من الحضور الايجابي ، وتدفعنا في الحضور السلبي . والوجود كل الوجود . هو سلب وايجاب .

تمالكت مشاعري وحدثت امي بدون انسياق انفعالي تام : اماه لا تبكي يا اماه . فالبكاء افيون الذات . داؤها العاطفي الذي يجعل الانسان فريسة للقوة او التعاطف الذي يحقق-ذاته من خلاله . وانا لا اريد ان اكون فريسة البكاء في هذه اللحظة لانه يفت عزمات الرجال. انه يجعلني افقد حريتي ، اشعر بالانسحاق ـ وان كانت ذاتي فيه ستكون اكثر عطاء ـ ان الترفع عن البكاء في اللحظة الفاجعة رجولة. لكن البكاء فيها يفتدي الوجود بالدموع . والدموع من الحياة . وانا اقدر دموعك يا اماه . اقدرها لانها تزرع في قلبي الاسى والحزن .

قلت ذلك بلهجة عامية وكلمات مبسطة . وكان رد الفعل لديها ولدي ينقض ما اقول وما قلت ، الا انها تمالكت كما تمالكت انا ، وقالت : بلى يا ولدي البكاء افيون الذات . وانا لا اريد ان اخدر ذاتك.

كانت ملامحها تجيش بزاخر الحب ، اما سحنتها فكانت تطفو فوقها الكآبة ولم ادعها تتجذر في الصمت والحزن فسألتها بحماسة غير معهودة وغير متناهية عن كل شيء الا انني عندما ذكرت لها اسم ، ع ، وجمت ثم اخذت تطوف بنظراتها في انحاء القبو حتى بدا لي انها محاصرة تريد الهرب . وامسكت يدها اليمنى وجهي والتصق فمها بجبيني ثم بكت وراحت تتمتم بكلمات متقطعة : ع ، يا ولدي اصبحت بايدي الحرس . ولا نعلم غير ذلك ، لكننا نعلم ان هناك اساليب وحشية ووسائل لا اخلاقية .. وتوقفت ثم تابعت : وانت الا تعرف عيها شيئا ؟

ـ كل الذي اعرفه لا يتعدى حدود التخمين ، ولكن التخمين حينما يحتل مكان اليقين يصبح اقوى منه ، قلت ذلك وانا اراقب الحرس القومي الذي كان واقفا في باب القبو ينصت الينا ، ولم تكن بي حاجة ان اعرف ان المواجهات لا تتم الا بحضور افراد الحرس ، وقد كان فضلا منه ان يبتعد عنا قليلا حتى نستطيع ان نتكلم بحرية ! . وهكذا تكون الفضائل والافضال . لكني علمت ان تلك الافضال ليست طبيعية بقدر ما هي مقصودة ، ذلك لان فرق الحرس قد وضعت لاقطات صوت في الاقبية والممرات والدهاليز . الامر الذي جعل عدم الاصغاء ـ شخصيا ـ الى المساجين وعائلاتهم شيئا يعبر عن هبة الكرم الاخلاقي !.

وارتعدت اعماقي عندما خرجت والدتي التي اقتحمت صفوف الحرس . ثم انتشت وسكرت ، بل ثملت عندما شاهدت امي تلك المرأة القروية الشجاعة وهي تدلف الى الخارج تضع يدها على كتف احد افراد الحرس قائلة له بلهجة عامية عميقة : يا لك عن الطريق . خلي انشوف الضوي ، يا زغيرون . وانتفض الحرس بعد ان وضع يده اليسرى على خاصرته اما يده اليمنى فراحت تتحسس شواربه بصورة عفوية وكأنها تقول لوالدتي : انا لست صغيرا . انا كبير وهذه علامة رجولتي .. وراح يحملق بها بوقاحة . الا انها دلفت الى الخارج بعدما احدثت لجلاد صغير ازمة حملت له تحدي الشعب مجسدا بامي. فكلمة بالك . تعني افسح الطريق . الطريق الى النور . الذي يدعى بالضوى . اي الضوء . اما تصغيرها له ونعته بيزغيرون فهو تأكيد صغر الحرس وما يمثله من قوى متخلفة في نظر الشعب .. وعدت ادراجي الى الزنزانة . وانحشرت في زاويتي من جديد ، لكن فكري كان معلقا بالعالم الخارجي . فهو يهرب من واقع السجن باستمرار . فكل شيء في السجن ريبة ، وكل ريبة سبة ، لعنة تقودك الى زيارة غرفة التعذيب مرة وثانية وثالثة . اننا نهرب كي نعوض وجودنا وفي التعويض يجد الكائن مبتغاه ولو بصورة مشوهة مزورة .

غرفة التعذيب تذبح الشرف باستمرار فهي تكتسح رجولة بعض الشباب الذين يروقون بنظر ابطال الشعارات العريضة والتوترات الثورية المتتالية ، ففي كل ليلة يكون الضحية شابا جميلا وتلك هي العقائدية والثورية ! وايا كان فاللواط قد اصبح مشروعا ارهابي يستطيع فيه الضحية ان يقول كل شيء ويعترف حتى لا يضاجعه افراد الحرس المختصين بعمليات اللواط .. الغرفة تقعي فوق الشباب كما يقعي الكلب فوق انثاه . تمزق شرفهم ، تدفن رجولتهم ،لا يفلت منها الا من كان سنه كبيرا او كان تعذيبه على ايدي قادة فرقة التعذيب الذين يحللون النساء ويحرمون الرجال ـ متى شاءوا ـ ولربما اصاب الكثير والكثيرات ما اصاب غيرهم وغيرهن . لولا عوامل بعض الصدف . ولولا ان فرقة التعذيب كانت قد تركت للجلاوزة الصغار ادارة الاعمال الجنسية التي تمارس على قدم وساق . في الليل والنهار في معتقل « الادارة المحلية » كما ذكرت . ولقد علمت ان ع نجت بأعجوبة من ايدي السفاحين وانها قد اخرجت من السجن في حالة عقلية وصحية يرثى لها بعد ان لم يستطيعوا ان يثبتوا ضدها اي شيء سوى كونها ابنة عمي .

ان تتكلم عن الاعمال اللااخلاقية التي يمارسها الحرس فيجب ان تسد انفك مقدما كيلا تشم الرائحة النتنة . لكن اسمع هذا وانتقل الى الاماكن التي هي وعاء العذاب والالم . فنحن نعرف الم الاظافر المنتزعة والرؤوس المكهربة والظهور المتصلبة والايدي المبطوشة والاعين المفقوءة والزائفة والكليلة . ونعرف الاكاذيب والدعايات الموجهة الينا. وربما كان هذا هو السبب الذي خفض معنويات بعض المعتقلين . واذا تحدث الانسان في ذلك الموقف فان حديثه يكون هوى رديئا في المقاييس والمعايير . فالحديث عن القيم لا يغير الحياة الا اذا كان الفصل هو الرديف الموازي لها . اما الاستجابة للهوى فهو لا يعني ماديا اي شيء. سوى ايجاد مزاج فيزيولوجي حاد في انفسنا يتكون بأسباب عضوية وكيميائية، لكن فضيلتنا كانت لا تستسلم للغيظ الذي هو شهوة الانتقام الذي استحال الى معتقدات ومذاهب . وذلك هو الخير الذي تحبه فرق التعذيب في « محكمة الشعب » وقصر النهاية والنادي الاولمبي « وسجن رقم واحد » ومعتقلات السدة الشرقية « والادارة المحلية » والفضل « ومعتقل نقرة السلمان الرهيب » وسجن الحلة والكوت ومنافي شمال العراق ودهاليز واقبية الموت التي تحرسها الذئاب والكلاب المفترسة .

ان لحظات السجن كانت تجعل فكري يغور في الاشياء . فهو يندفع الى تفسيرات الخير والشر . والقيم الموضوعة . والنظريات . والاخلاقيات والمذاهب . ثم يعود ليجد في مسألة البشر شيئين هما : كون الحياة قيمة حقيقية . ولا دخل للبشر في تغيير قيمها . اما الشيء الثاني فهي أن التاريخ الجبري لم يتكون في ابعاده وتطوراته وصراعاته الا لان البشر يبكون على ذاتهم في المذاهب والمعتقدات . فهم اذن يبكون جبرية الحياة وحتميتها . انهم يجدون تعويضا وعلاجا في التمرد والتشنج والثورة والعصيان والحرب والاقتتال . ولو كانت الحياة توترا مستمرا لقبلها الانسان لان علل الاشياء واسبابها وتناقضاتها الحركية المادية تجعله يحيا خارج الاشياء لا داخلها . وهو في قيمه ومبادئه وافكاره يحاول ان يصنع تلك الداخلية التي يود ان يراها عارية امامه ومثلما يلتذ الشبق جنسيا بالنظر للاعضاء التناسلية يجد الانسان لذة في الحروب والمجازر والمآسي لانها تكشف اعماقه . ترسمها في الخارج ، تجسد آثامه وآلامه ومقاصده . ولذا يلتذ البشر بالالام والمآسي فهم يؤيدونها من حيث معارضتهم لها . ويضحكون على الضعيف والبائس والشقي من حيث بكاؤهم عليه . انهم يحبون العري لانه يرسم داخلهم في الخارج . ويعجبون بمن يدغدغ ضعفهم وشقاءهم وفي طبائع الناس بحثا عن الذات . فهل الذات الانسانية ضعيفة لانها في اختراعها للقيم والافكار لا تكون قانون الشيء وسببه لانها منه ؟ ام لانها في كينونتها تعرض ذاتها على ذاتها . وفي كلا الامرين تدافع عن وجودها .

المهم ان البشر لا يساوون في مادتهم حركة الشيء لانه سببهم . وجميع ما في الكون يتحرك بفعل السبب والعلة. اما هم فلا يستطيعون ان يعتقدوا او يعملوا ويفكروا او يتصلوا بالنساء ما لم يلتزموا ذاتهم. ولقد التزم البعث ذاته فكانت اساليبه في رحمتها بفضاء الحقد.وفي وحشيتها لحد الموت . ولهذا فالفاضل لديها من كان حقده مجالا لذاته. وبغضاؤه طبيعة لخصائصه . وذلك هو الخير .

ان الخير الذي يتجسد امامنا هو حروق في الوجه ولسعات في الرأس وتهشيم للعظام والايدي والارجل وانتزاع الاظافر بالكلابات او بضربها بالصوندات حتى تسقط دونما عناء . ولقد سقطت جميع اظافر يدي اليسرى بعد ان ضربوا اظافرها بالصوندات الامر الذي جعل الدماء تتكلس وتتحجر فيها ، ثم استحالت بعد اسبوع الى اظافر ميتة ما لبثت ان سقطت كلها دفعة واحدة .. انها لمزية ان يكون الغيظ والانتقام فضيلة الانسان !. مزية تستعبد الحق والاخلاص والانسانية وتجعل كل شيء في خدمتها . انها لمريعة تلك الفضيلة التي تبيد كل شيء لا يخدمها ، فكم من بشر ارهقتهم الحياة فالتجأوا الى الانتقام ، وكم من بشر ارهقوا الحياة بغيظهم الذي هو شهوتهم المعكوسة حقدا.. ان من تحيط به المشاكل يلجأ الى تغير واقعه من خلال الرؤى الايديولوجية

صدر حديثا

كامو والتمرد

بقلم
روبير دولوبيه

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

طبعة جديدة من كتاب يدرس فلسفة العبث والتمرد عند احد كبار مفكري هذا العصر

منشورات دار الآداب — السعر ١٥٠ ق. ل

الواعية وذلك هو الكائن المدرك . اما الذي يتوهم الادراك ،فيسقط في تمرد متشنج عصابي النزعة والصبوة . ونتيجة لذلك تكون شخصيته كائنة من احتقاره للاخرين . وهكذا يبرر الفرد او الحزب الابقاء على نفسه . ولقد رأيت قبل ان ادخل السجن اعتداءات الحرس على المواطنين وتفتيش الاحياء والسيارات والمحلات العامة . كل ذلك بأسم صيانة الثورة !. ولم اكن اسيء الظن بالثورة لكن ظني كان سيئا بالنسبة للانقلابات العسكرية التي تحدث عادة في بلادنا العربية والتي هي مزاج ذاتي تسمى زورا ثورات ، انها انقلابات مزاجية يقوم بها العاجزون عن ادراك الثورة الصحيحة . وهي توتر الامة وغضبها ضد ذاتها . لكن الغضب العسكري دائما ابله واحمق وبليد . لا يعرف الا منطق السلاح والقوة ومزاج الفراغ بكل ما فيه من نزوة سادرة في القسوة والرعونة والطيش .

والمزاج الفيزيولوجي النفسي يمتليء اقذارا وسموما وحقدا وقيحا لينفث على البشر افعاله وينساب في علاقاتهم المادية والاجتماعية كما تنساب الافعى بين الادغال . والحرس ليس الا كتلة افاع ترى في قضية التعذيب قضية نضالية تسكت صوت الاخرين . وتطفيء ظمأ النصل الذي يشتاق الى الاغماد . ولو انعمنا النظر لرأينا ان عقلية قادتهم تدفعهم في جنون لارتكاب الجرائم لان ذاتها لا يهمها ان تريق الدماء ما دام جرمها يوصلها الى الغبطة والمسرة ، « وعقلية قادة البعث رسمت دائرة اجرامها الموصلة الى الغبطة الثملة على اساس السيطرة على التاريخ الا انها سقطت فريسة لتفكيرها لان من يرسم الدائرة ويحركها يسقط في حبائلها » ... وهكذا اصبح الاجرام قاعدة كيان البعث الذي ما ان افترس البشر حتى التفتت ذاته الى نفسها فاشتبكت معها لانها كانت تظن ان شبح الاخرين يطاردها ، وتلك هي القوة الدموية التي تفتش عن غنيمة تشفي بها حقدها وغيظها ، وذلك هو الجنون السادي الذي تكون روحه ضعيفة امام الحياة فيثار منها كي يسيطر عليها . اني استعرض جو زنزانتنا فارى الانات والتأوهات تصعد العذاب هواء يتنفس فيه الاوغاد فتشمئز نفسي من نفسي لانني لا طاقة لي في تحمل ذلك الهواء ، لا قدرة لي في تنفسه ، انه يتغلغل في مجاري انفي ، في رئتي ، في لحمي ودمي . لكني استهزأت فيما بعد بكل شيء لان من يرى الهواء فاسدا ويعيش فيه لا يهمه ان يطارد الاشباح التي تضع المآسي لتعيش فيها . ومن يطارد الاشباح يتحول الى قيمة معوقة . تقف بوجه الصغائر التي تضع الحقارات والاثام الكبيرة والمآسي التي فيها جميع انواع الشقاء والبؤس . وتلك هي مهمتي : ان اتحدى بحوافز معارضة للشر كحركة وصبوة . لهذا اهاب الركوع والاستخذاء واستجداء العاطفة والشفقة . اهاب ان امسح احذية الطغاة من اجل ان اشتري حياتي . ومحال ان تجبرني الظروف والاحداث . ومحال ان اركع واستجدي الحياة لان ارادتي اقوى من الاغراء والاكراه . دعني اذوب في مهمتي . ان اتحول الى اغنية تعالج آلام الاخرين . دعني اتغذى بآلامي كي اجسد قيمتي . ان اكون شاهد حقيقة لا زور ضد المسار التاريخي المزيف الذي يسير فيه الارجاس . ان اكون حركة في المادة تدفع . وقيمة في الاشياء ترى . بقدر كوني موضوعا فاجعا . وهل يكون الفجوع اشد ايلاما اذا كان الوجود الذي يتضمنه نقدا موجها واتهاما ؟ لا ادري . ولكن الذي اعلمه ان مهمة الكاتب ان يحيا بوجوده الذي يتغذى بآلامه ودموعه . ان يتحول الى اتهام . الى تجاوز للواقع . الى نقد . الى مقاومة . الى وجود يتحدى الخوف والعذاب والاكراه والقهر وطغيان الرجعية ومظالم المجتمعات والافكار والعقائد . وتلك هي عظمته .

بغداد — جميل ك. المناف

صدر حديثا في

سلسلة القصص العالمية

الحلقة الاولى

قصص سارتر

في كتاب واحد يضم : الجدار ، الغرفة ، ايروسترات ـ صميمية ـ صداقة عجيبة

نقدها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٣٥٠ ق.ل

والحلقة الثانية

قصص كامو

في كتاب واحد يضم : الغريب ـ الزوجة الخائنة ـ الجاحد ـ اليكم ـ الضيف ـ جوناس ـ الحجر الذي ينبت

ترجمة

عايدة مطرجي ادريس

الثمن ٤ ليرات لبنانية

منشورات دار الآداب